مغالطات ...
أقسى من الجهل !

لفضيلة الشيخ:

أبي جهاد كمال بن محمد المرزوقي

حفظه الله

سامحونا على التّطويل، ولعلّ من يصبر تنفعه كلمة.

ما يؤسـيني فعليّا ليس هو الغلط في مسـألة بعينها هي من المسـائل الدّوّارة المكرّرة الموسـميّة، والّتي سيتكرّر مثلها كثيرا ككلّ مرّة وتكون النّتيجة ككلّ مرّة، صرخة في وادٍ ممّن يفهم، وزعيقا يملأ الفضاء ممّن لا يفهم.

ليس فقهها ما آسى عليه بل أسس التّفكير السّليم نفسها عند أقوام!

ليس فقهها ما آسى عليه بل آلة العقل نفسها عند آخرين!

وإنّي لعارف بأنّ وِزْرَ إفساد الذّائقة العلميّة، وأصول الاستدلال، وتقحّم الاعتراض وطلب المناظرة، وتسوّر محاريب العلم من ظهورها، يحمله مشـايخ بِلِحًى، وأنّ كلّ ما نقول ملحقٌ بضر۔طات العير في الفلاة، إلّا أنّنا ما نتجشّم لهذا إلّا " معذرة إلى ربّكم ولعلّهم يتّقون ".

المسـألة كما قلتُ مسـألة خلل في أسـس التّفكير المنطقيّ، ولأضربنّ عليه بعض الأمثلة ممّا يبيّن لك حجم الكارثة واقعيّا، كلّها بعيدة عن الأخطاء الفقهيّة والشّرعيّة.

الإلــزام بإنكــار كلّ منكــر:

هذا خلل في التّفكير أصلا

فحين ترى من يقول: " لماذا لم تنكروا حرق النّاس في رابعة؟ "، " لماذا لم تنكروا التّحالف الصّـليبي؟ "، " لماذا لم تنكروا حرق أهل بورما؟ " ... فاعلم أنّ مشـكلة هذا القائل في نظام ذهنه نفسـه، وقدرته الفكريّة، لا في مجرّد الجهل بالشّرع.

فإنّ هذا الكلام مضـمونه أنّه يلزمك ألا تنكر منكرا حتّى تنكر كلّ منكر وقع منذ آدم إلى يومك الّذي أنت فيه!

وقد سبق وأجبت عن هذا الخطأ في التّفكير، وهذه المغالطة، ببعض التّفصيل هنا:

لماذا لم تتكلّم في كذا؟

1 -أوّلا لا بدّ أن يعلم أنّ عامّة من يسألون مثل هذا السّؤال يقصدون حرفيّا هذا: " لماذا لم تقل كذا في كذا " ، فهم عندهم جواب أو رأي يريدون أن يسمعوه منك لا أكثر.

2- هذا الّذي يريدون أن يسمعوه منك قد يكون مخالفا لرأيك الّذي بنيته بأدلّة مستقلّة محايدة بعيدا عن التّهويشات الّتي لا تحوي أكثر من الانطباعات العاطفيّة فقد يسعك أن تقرّر عدم إبدائه والاكتفاء بالسّكوت العامّ والبيان الخاصّ من باب من حدّث بالعلم قوما دون قوم، أو لكون الأمر واسعا يسوغ فيه الخلاف وليس فيه أمور حدّيّة أو قطعيّات لا يجوز خلافها، أو لكونه ليس أولويّا، أو لكونه لا يعنيك أصلا، أو هذا أهمّ قد تكون لم تكوّن فيه بعد رأيا كاملا يصلح للعرض لنقص الأدوات المعلوماتيّة أو نقص الآلة والأهليّة، وهو ما لا يفهمه من لهم في كلّ مسألة هذرمة ورأي فطير لا علمٌ ولا ورعٌ تصديقا للصّادق المصدوق = " التّافه يتكلّم في أمر العامّة " ، ولو سكت النّاس فلم يتكلّم إلّا من يعلم فيما يعلم لرأيت الكون يصفر فيه أزيز الصّمت العظيم كالّذي ساد الأرض بعد الطّوفان.

3-أعجب من هذا أن يكون هذا السّؤال الأحمق جوابا وردّا على كونك تكلّمت في كذا، فقول لك: لماذا تتكلّم في كذا ولم تتكلّم في كذا؟

وهذا عته في العقل لا أكثر، فليس شيء في الدّنيا ستقوله إلّا وآتيك بموضوع وأقول لك لماذا لم تتكلّم في كذا؟

لماذا لم تتحدّث عن مشكلة العوانس؟ لماذا لم تتكلّم عن الأعراض الثّانويّة للعلاج الكيميائيّ لمرضى السّرطان؟ لماذا لم تتكلّم عن مشكلة البواسير عند من يأكلون الهريسة؟

طبعا سيجيبك أخرق بأنّ المقصود قضايا الأمّة، وجوابه أنّ هذه من قضايا الأمّة، ولن يمكنك معرفة حجم خطورتها إلّا بعد إصابتك بالبواسير مثلا.

وقد يجيبك المعتوه (هو هو) بأنّ هذه أمور ليست مهمّة، فنقول له الأهمّيّة نسبيّة وحين تصاب بالبواسير تصير هذه قضيّة أمن قوميّ بالنّسبة لك، جرّب واذكرني.

واختصارا هذه مغالطة منطقيّة معروفة هي داخلة في ضمن الحيدة، فهو حين يفشل في الجواب عما تدلي به من حجّة أو يفشل في دفع تهمة تمسّه لا يملك عنها محيصا ولا مدفعا يهرب لقضيّة أخرى لا تعنيه أصلا:

لماذا لم تفعل؟

طبعا لأنّني حرّ أفعل ما أشاء.

4- وقد لا تتكلّم في القضيّة لكونها من البدهيّات وجوابها معروف لكلّ ذي عقل، وقد تكلّم كلّ من هبّ ودبّ وقام وانكبّ فيها، فلن تضيف جديدا مفيدا، فلماذا تتكلّم؟

في حين هناك بلوى عظيمة يشارك فيها صاحب حمقمقيّة = (لماذا لا تتكلّم في كذا؟) تعيّن عليك الكلام فيها.

فمخّ (الهدرة) يريد المعتوه شغلك عن الكلام في كذا (الّتي تعيّن عليك فيها الكلام) بجرّك للكلام عن كذا التّافهة في رأيك، والّتي هي حيلة العاجز عنده لا أكثر.

5- أحلى ما في الموضوع حين يسألك أحدهم هذا السّؤال وتكون أنت ممّن نذر حياته لشعار = (لماذا لا تسكت عن الكلام في كذا فإنّك لا تحسن؟)

ربّ يسّر وأعن!

وأضيف:

- ستجد أكثر من يقولون لهم هذه الكلمة قد تكلّموا في هذه القضايا وفصّلوا فيها.

- ستجد أكثر من يقولون هذه الكلمة لم يبحثوا أصلا في كلام هؤلاء المتّهمين هل قالوا أم لم يقولوا؟، ممّا يكشف لك مبلغ ورعهم ثمّ فهمهم.

فهم يستعملون في هذا قاعدة " لم نَرَ = لمْ يحدث "! وهو نوع من أنواع مغالطة الاحتكام للجهل الّتي قوامها: ما لا نعرفه غير موجود. (ad ignoratiam)

وليتهم لم يروا بعد بحث واجتهاد، بل ليتهم لم يروا بعد بحث بلا اجتهاد، ولكنّهم لم يروا لكونهم أغمضوا أعينهم، فمن عذيرنا من مثل هؤلاء؟!

- كلّ ما تتكلّمون عنه من جرائم هو مساوٍ لجريمة داعش، فأين النّكتة؟

النّكتة أنّ داعش وحدها هي الّتي تنسب فعالها للشّـرع وتلحقه به، فمنكرها منكران، فلو سلّمنا لكم بصحّة قاعدة "لا ينكر إلّا من أنكر كلّ منكر" الّتي لا يقول بها إنس ولا جانّ، لكان البدء بداعش أولى من جهة أنّ هذا دفاع عن سياج الشّريعة نفسه، ومرتبته في سلّم الأولويّات ينبغي أن تكون الأعلى.

لا يفتي قاعد لمجاهد وأهل مكّة أدرى بشعابها:

وهي قاعدة من أبطل الباطل وأبينه، وأصلها خلل في مسالك التّفكير أيضا، وقد سبق أن بيّنت تهافتها هنا:

كلمات مقصود منها أن لا ترضيك

"لا يفتي قاعد لمجاهد" قاعدة باطلة جملة وتفصيلا، للأسباب التّالية:

1-أبو حنيفة ومالك والشـافعي وأحمد والثوري والأوزاعي وأبو ثور وإسـحاق بن راهويه والسـفيانان والحمّادان والبخاري ومسـلم والرّازيان ...، في تصـنيف القائلين بهذا اللّغو المسـمّى = قاعدة، مجموعة من القعدة، فما عرف عن أحد منهم أنّه خرج لثغر!

2-هذه ليسـت قاعدة فقهيّة ولا شرعيّة وإنّما هي كلام يتكوّن من حروف متراصّـة فقط، يعني: لفظ مفيد كاستقم.

3-الفتيا صـناعة من ملك آلتها أفتى بالشــــروط المعتبرة عند العلماء، ومن لم يملكها سـكت، قاعدا أو مقاتلا، فتحصّل أنّ التعليق بالجهاد والقعود ههنا شطح صوفيّ لا أكثر.

4-نصوص الشرع حاكمة على المجاهد وغيره -والمجاهد أولى لما جاء في المنطوق الموالي-بأن يرجع لأهل العلم ليعلم حكم الله في كلّ فعل قبل الشرـوع فيه، كما في أمره تبارك وتعالى: "وما كان المؤمنون لينفروا كـافة فلولا نفر من كـلّ فرقة مّنهم طـائفة لّيتفقّهوا في الـدّين ولينـذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون" .

5-تشـغيبك على أهل العلم بأنّهم لا يفقهون الواقع، جعجعة لا طحين لها، فهم أعرف منك به إذ الفقيه أقدر منك على تـصوّر المسألة حتّى وإن كنت أنت فيها وفي ناقو سها غارقا، بل هو يتـصوّر ما لم ير فيحكم

عليه أتقن من حكمك أنت الّذي رأيت، وظنّه خير من يقينك، وبعض الأذكياء الأفذاذ يتصـوّر ما لا يوجد في الخارج، وأوهامك تحملك أن تتصوّر ما لا يوجد في الذّهن أصلا.

أم تراك تظنّ الحائض أعرف بأحكام الحيض من الفقيه لكونها تحيض ولا يفعل؟ !

وعلى التّسليم لك بأنّه لا يفقه الواقع –من باب التّسليم الخيالي وسادير الأوهام– فأنت لا تدري أحكام الجهاد، وهذه حقيقة صلبة ثابتة برهانها في نفسك ... فأيّكما أولى بردّ كلامه جملة وابتداء من غير طول نظر ؟!

6–كلامك مجموعة من الشّـعارات الزّائفة عند أرباب النّهى وذوي العقول لأنّك لا تقرأ، وإن أردت أن تفعل لم تدر ما تقرأ ومن أين تبدأ وكيف تسـتمرّ، ومثال ذلك أنت تدّعي أنّ هؤلاء قعدة مهنتهم التّنظير، وأولئك يسطّرون المجد بفعالهم ... وهذه حجّة خطابيّة خاوية لا أكثر تعجب الدّهماء وتمجّها العلماء.

وأعجب من هذا لا يقولها إلاّ من لم يخبر العمل الميدانيّ يوما وإنّما هو مجاهد بالمراسلة وبالنّية لا أكثر!

أفأصدّقك أم أصدّق الأستاذ توفيق الطّيّب مثلا صاحب الكتاب المهمّ، الّذي هو الأساس الفكريّ لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين: (ما بعد النّكبتين)، والّذي طبع فيما بعد باسم: (الحلّ الإسلاميّ فيما بعد النّكبتين)، والّذي بيّن فيه بالبراهين لا بالخطابيّات: أساسيّة الفكر والتّنظير والاستشراف الاستراتيجي، والأهمّ من ذلك خطورة الدّعوى بأنّ ذلك ترف فكريّ يعيق العمل الميداني، وبيّن أنّ هذه الدّعوى هي أخطر عائق للعمل الميداني!

7–هذه القاعدة منقوضة بأفعال من ينتحلها أصلا، فكم أفتى لهم قعدة لمجرد أنّهم = "على المنهج".

8–حاصـل هذه القاعدة ألا يفتي للمجاهدين قاعد، وهذا منقوض بدعوات المجاهدين –الحقيقيين طبعا دعك من التّقليد والصّنع الصّيني– أنفسهم لأهل العلم أن يرشدوهم ويفتوهم.

9–يغني عن هذا كلّه فهم صـحيح لقوله تعالى " والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سـبلنا"، وفهمك لمراتب الجهاد، وخروجك من القوقعة الّتي جعلتك تفهم منه السـيف وحده، وتسـليمك بجهلك لتتعلّم وإلاّ لحقتك وصمته طول عمرك، ثمّ سؤالك بعد ذلك كلّه ما الدّليل من الوحي على هكذا قاعدة لم يعرفها كلّ من صنّف في علم القواعد حتّى ذرّ قرنك المبارك في هذا القرن؟!

10–العنوان مفيد، كتبته بإرادتي الحرّة من غير ضغوطات فاقرأه.

= تلك عشرة كاملة!

____

حاشية: الخلاف في الرّأي يفسد للودّ كلّ قضيّة، كما هو معلوم فلا حاجة للتّذكير، فأنت حصيف!

وهنا تفصيل أكثر لكلّ ما تمسّكوا به أو نزعوا:

تصحيح لخطأ شائع في الاستدلال بقوله تعالى:

«وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا»

يستدلّ بعض الكتاب بهذه الآية على أنّ الهداية للصّواب في المسائل العلميّة الّتي يقع فيها الخلاف تكون مع المجاهدين، ويقصدون بالمجاهدين المقاتلين في الثّغور.

فإذا وقع خلاف علميّ بين النّاس نظرنا لما عليه المقاتلون واتّبعنا قولهم لأنّهم هم المهدّيون، ويشفعون هذا بالمرويّ عن أحمد وابن المبارك وابن عيينة: «إذا رأيتم النّاس اختلفوا، فعليكم بالمجاهدين وأهل الثُّغور، فإنّ الله تعالى يقول: والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا».

وهذا خطأ شنيع لم يقل به أحد من أهل العلم ولا واحد ممّن له بالتّفسير قرابة وفي الفقه نظر بإصابة، والبيان كالآتي:

هذا الاستدلال قائم على ركيزتين:

1-الأولى: أنّ الجهاد هنا بمعنى القتال

2-الثّانية: أنّ الهداية هنا هي الهداية لإصابة الحقّ في المسائل العلميّة

وبطلان هذين يبطل ذلك الفهم رأساً، ويلحق هذا الاستدلال باللّغو حكما بلا خفاء على أقلّ النّاس عقلاً.

أ-مفهوم الجهاد في الآية:

1-الجهاد على ما فصّله ابن القيّم أربعة عشر مرتبة: أربعة في جهاد النّفس واثنتان في جهاد الشّيطان وأربعة في جهاد المنافقين وأربعة في جهاد الكفّار، وليس في كلّ هذه المراتب سيف إلّا المرتبة الأخيرة في جهاد المنافقين ومثلها في الكفّار، والسّيف في جهاد الكفّار أملك واللّسان في جهاد المنافقين أملك.

انظر تفصيلها في زاد المعاد (3/ 9).

وجهاد النّفس والشّيطان مقدّم على القتال والجهاد بالنّفس بل هذا الأخير فرع له مترتّب عليه، انظر زاد المعاد (3/ 5).

وقال ابن القيّم في الفوائد (ص 53): {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا} علَّق سبحانه الهدايَةَ بالجهاد، فأكْملُ الناس هدايةً أعظمُهم جهادًا، وأفرضُ الجهاد جهادُ النَّفْس، وجهادُ الهوى، وجهادُ الشَّيطان، وجهادُ الدُّنيا؛ فمَن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سُبُل رِضاه الموصلة إلى جنَّته، ومَن ترَك الجهاد، فاتَه من الهُدى بحسَب ما عطَّل من الجهاد، قال الجُنيد: والذين جاهدوا أهواءَهم فينا بالتوبة، لنهدينهم سُبُلَ الإخلاص» اهـ

فالجهاد ليس محصورًا في القتال بل هو أوسع من ذلك بكثير.

2-الجهاد المقصود في الآية هو الجهاد بمعناه العامّ، أو إن شئت قلت بمعناه في لسان العرب لا بمعناه الاصطلاحيّ، بل لو قلنا إنّ القتال خارج من معنى الآية ولا يدخل فيها إلّا بتأويل كإعمال قاعدة العبرة بعموم اللّفظ مثلا لما أبعدنا، إذ إنّ المنطوق هنا لا يحتمل القتال قطعا، لأنّ الآية مكّيّة ولم يكن قتالٌ بمكّة ولا إذنٌ به بل كانوا مأمورين بالكفّ والصّبر.

قال ابن عطيّة في تفسيره: وقوله {فينا}، معناه في مرضاتنا وبغية ثوابنا. قال السدي وغيره: نزلت هذه الآية قبل فرض القتال.

قال الفقيه الإمام القاضي: فهي قبل الجهاد العرفي وإنما هو جهاد عامّ في دين الله وطلب مرضاته، قال الحسن بن أبي الحسن: الآية في العباد، وقال عياش وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعلمون، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من عمل بما علم علمه الله ما لم يعلم»، ونزع بعض العلماء بقوله تعالى: {واتقوا الله ويعلمكم الله} [البقرة: 282]، وقال عمر بن عبد العزيز: إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا، وقال أبو سليمان الداراني: ليس الجهاد في هذه الآية قتال العدو فقط بل هو نصر الدين والرد على المبطلين وقمع الظالمين، وعظمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس في

طاعة الله عز وجل وهو الجهاد الأكبر، قاله الحسن وغيره وفيه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم « رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »، وقال سفيان بن عيينة لابن المبارك: إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله يقول {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا} وقال الضحاك: معنى الآية {والذين جاهدوا} في الهجرة {لنهدينهم} سبل الثبوت على الإيمان» اهـ

فمعنى الجهاد هنا هو بذل الجهد لنصرة الدّين وإعلاء كلمة الله تعالى بأيّ وجه كان، ولذلك قال شيخ الإسلام: «فكذلك يكون هذا الجزاء في حق المجاهدين كما قال تعالى: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا} فهذا في العلم والنور» اهـ.

وقال ابن تيميَّة في جامع الرّسائل والمسائل: (6/ 82): «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا قال معاذ بن جبل: والبحثُ في العلِم جهاد». اهـ

وقال في الفتاوى الكبرى: (5/ 62): «لكن من رجا شيئا طلبه ومن خاف من شيء هرب منه وإذا اجتهد واستعان بالله تعالى ولازم الاستغفار والاجتهاد فلا بد أن يؤتيه الله من فضله ما لم يخطر ببال وإذا رأى أنه لا ينشرح صدره ولا يحصل له حلاوة الإيمان ونور الهداية فليكثر التوبة والاستغفار وليلازم الاجتهاد بحسب الإمكان فإن الله يقول: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا}» اهـ

فانظر كيف جعل عموم الاستغفار والتوبة داخلا في معنى الآية وكيف فهم منها أنّ الجهاد هو مطلق الاجتهاد.

وقال في بيان التّلبيس (1/ 177): «فلا أحد يعقل من آحاد الناس إلا وله في جليها مستدل وفي واضحها مستشهد وإن كان نزل فهمه عن دقيقها ولطيفها فالواجب على كل من الناس أن يبذل وسعه فيه ويبلغ جهده في دركه فإن الله تعالى يقول والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين» اهـ

فجعل الاجتهاد في البحث العلميّ داخلا في الجهاد المذكور في الآية.

ولذلك أيضا فسّر ابن كثير {الّذين جاهدوا فينا} بأنّهم محمّد صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه وأتباعه إلى يوم القيامة، وهذا لا شكّ عامّ في كلّ جهاد.

واقتصر ابن جرير على معنى القتال لكنّه لم يرد به الحصر قطعا وإنّما جرى مجرى السّلف في التّفسير حين يذكرون جزءا من المعنى ويريدون الكلّ على ما هو مبيّن في أصول التّفسير وأفاض شيخ الإسلام في شرحه في مقدّمته.

ولذلك فقد ذكر البغويّ جملة من المعاني فقال: «{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا} الذين جاهدوا المشركين لنصرة ديننا، {لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} لنثبتنهم على ما قاتلوا عليه. وقيل: لنزيدنّهم هدى كما قال: {ويزيد الله الذين اهتدوا هدى}، وقيل: لنوقفنهم لإصابة الطريق المستقيمة، والطريق المستقيمة هي التي يوصل بها إلى رضا الله عز وجل. قال سفيان بن عيينة: إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثّغور، فإن الله قال: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} وقيل: المجاهدة هي الصبر على الطاعات. قال الحسن: أفضل الجهاد مخالفة الهوى. وقال الفضيل بن عياض: والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به. وقال سهل بن عبد الله: والذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة. وروي عن ابن عباس: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا» اهـ

فهذا قاض بكون الجهاد ههنا عامّا لا مخصوصا بالقتال لما بيّناه، وحصره فيه خطأ محض، بل إدخاله هو المحتاج لاستدلال صحيح، والصّواب أنّه مشمول بالعموم ولا شكّ.

ب-مفهوم الهداية في الآية:

فهموا من الهداية أنّها الهداية إلى الحقّ والصّواب، وأنتج خطؤهم الأوّل في حصرهم للجهاد في القتال خطأ آخر -وهذا لازمٌ إذ الخطأ ينتج خطأ -وهو جعلهم الهداية.

للصّواب في المسائل العلميّة الشّرعيّة منوطا بالمقاتلين في سبيل الله تعالى، وكلّ ذلك خطأ.

1 - الآية نظير قوله تعالى: {والّذين اهتدوا زادهم هدى}، وقوله تعالى: {ولو أنّهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرًا لهم وأشد تثبيتا}، وقوله تعالى: {يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام}، وقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم}، وقوله تعالى: {وإن تطيعوه تهتدوا}، فينبغي أن تكون هذه الأصناف جميعًا مشمولة بتلك الهداية الّتي هي الهداية للصّواب والحقّ في المسائل العلميّة، وهذا صنو الاستدلال الّذي يستدلّ به بعض الطّرقيّة المتصوّفة بقول الله تعالى: {واتّقوا الله ويعلّمكم الله}.

وهذه الأنواع والأصناف شاملة لجميع الأمّة فينبغي ألا يصير لهذا النّوع من الهداية خصيصة على هذا الفهم المنكوس!
إذ ما من أحد إلّا ويمكنه ادّعاء التُّقى، أو ادّعاء طاعة الرّسول، وعليه فهو معلَّمٌ بعلم الله مهديّ لإصابة الحقّ بلا تعليم فبطل تخصيص أهل الثّغور.

2- يلزم عن هذا الفهم أن يكون المقاتل الجاهل الّذي لم يعرف غير الشّهادة أعلم بشرع الله تعالى ودينه من العلماء الّذين شابت لحاهم في العلم وهذا من أبطل الباطل حسًّا، ولم يقل به أحد له عقل فضلا عن العلم.
وقد نعى شيخ الإسلام على بعض المتصوّفة هذا النّوع من الاستدلال وعدّ الآية من جملة استدلالاتهم وأنكرها فقال في بيان تلبيس الجهميّة (1/ 257): «وأما الصوفية فطرقهم في النظر ليست طرقا نظرية أعني مركبة من مقدمات وأقيسة وإنما يزعمون أن المعرفة بالله وبغيره من الموجودات شيء يلقى في النفس عند تجردها من العوارض الشهوانية وإقبالها بالفكرة على المطلوب ويحتجون لتصحيح هذا بظواهر من الشرع كثيرة مثل قوله تعالى واتقوا الله ويعلمكم الله ومثل قوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ومثل قوله تعالى إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا إلى أ شباه ذلك كثيرة يظن أنها عا ضدة لهذا المعنى ونحن نقول إن هذه الطريقة وان سلمنا وجودها ليست عامة للناس بما هم ناس ولو كانت هذه الطريقة هي المقصودة بالناس لبطلت طريقة النظر ولكان وجودها بالناس عبثا، والقرآن كله إنما هو دعاء إلى النظر والاعتبار وتنبيه على طرق النظر نعم لسنا ننكر أن تكون إماتة الشهوات شرطا في صحة النظر مثل ما تكون الصحة شرطا في ذلك لا أن إماتة الشهوات هي التي تفيد بذاتها وإن كانت شرطا فيها كما أن الصحة شرط في التعلم وإن كانت ليست مفيدة له ومن هذه الجهة دعا الشرع إلى هذه الطريقة وحث عليها في جملتها حثا أعني على العمل لا أنها كافية بنفسها كما ظن القوم بل أن كانت نافعة في النظرية فعلى الوجه الذي قلنا وهذا بين عند من أنصف واعتبر الأمر بنفسه» اهـ
وهذه الطّريقة غير النّظريّة الّتي ينكر الشّيخ كونها مفيدة للعلم هي نفسها الّتي ينظر بها الفاهمون من الآية أنّ من كان في الثّغر هدي للعلم بما لا يعلم بمجرّد كونه من أهل الثّغر.

3-هذا الفهم يفضي لإلغاء دلالة الآية على هذا المعنى الخطأ نفسه، فإنّ المجاهدين أنفسهم يختلفون، فإذا اختلفوا فمن منهم يكون المصيب والمهديّ؟ نبّؤوني بعلم إن كنتم صادقين.

4-الهداية المقصودة هنا هي هداية التّوفيق، وهي مرتبطة بنوع الجهاد الّذي يجاهده الموفّق، فإذا كان مقاتلا وفّق للنّصر أو الشّهادة كما قال الله تعالى: {والّذين قاتلوا في سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم}، وقُرئ: {والّذين قُتلوا} فلا معنى للهداية هنا إلّا النّصر على قراءة (قاتلوا) والشّهادة على قراءة (قتلوا) وإلّا فما معنى الهداية للمقتول؟، وإذا كان ذاكرا وفّق للطّمأنينة {ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب}، وإذا كان متعلّما وفّق للعلم والصّواب فيه، وهكذا...

فأمّا أن يوفّق الذّاكر للشّهادة والمقاتل للعلم فهذا تخليط لا يقول به من له مسكة من عقل.

ويدلّ على هذا الفهم الصّحيح مجيء السّبل جمعًا، ولو كان المعنى أنّ المقاتلين يُهدون للصّواب والحقّ في المسائل العلميّة لجاء السّبيل بالإفراد، فإنّ الحقّ واحد، فلمّا جُمعت علمنا أنّ كلّ سبيل بحسبه فطلب العلم بالتّعلّم وطلب الشّهادة بالقتال وطلب النّسل بالزّواج، ... فتأمّل هذه!

لا مانع من كون عموم العمل الصّالح سببا من أسباب التّوفيق والهداية في الجملة، لكنّ هذا لا يعني ترك الأسباب والسّنن الكونيّة بالكلّيّة اتّكاء على هداية التّوفيق، فإنّ تلك الهداية لا تكون إلّا بالسّبل والأسباب المشروعة، ومن المحكمات أنّ العلم بالتّعلّم.

ج-المرويّ عن ابن حنبل وابن المبارك وابن عيينة:

«إذا رأيتم النّاس اختلفوا، فعليكم بالمجاهدين وأهل الثُّغور فإنّ الله تعالى يقول " والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا» .

1-لم يصحّ هذا الأثر بإسناد عن أحمد ولا ابن المبارك، وقد ذكره شيخ الإسلام في بعض كلامه عنهما مرسلا بلا إسناد.

2-هذا الأثر ينقل عن سفيان بن عيينة بإسناد ضعيف.

3-هذا الأثر -بالفهم الّذي نبطله هنا -مخالف للنّصّ والإجماع والقياس الجليّ وكلّ واحدة من هذه يبطل بها القضاء فضلا عن الأقوال، وتخرج القول من حيّز الاعتبار لحيّز الخلاف غير السّائغ المقطوع ببطلانه.

النّـــصّ:

فأمّا النّصّ فإنّ الله تعالى قال: {فاسألوا أهل الذّكر}، فكائنا من كان القائلُ: «اسألوا أهل الثّغر» فكلامه رَدٌّ لا يقبل.

وهذا الأثر -بهذا الفهم- مصادمٌ لقوله تعالى: {وما كان المؤمنون لينفروا كافّة فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدّين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون}.

فأوجب الله تعالى على أهل الثّغر التّفقّه في الدّين أي طلب الفقه من أهله لا العكس الّذي يفهمونه من هذا الأثر.

الإجماع:

وأمّا الإجماع فهو منعقد على كون العلم بالتّعلّم، وأنّ الاستدلال يكون بالأدلّة المعروفة في أصول الفقه، وأنّ الرّؤى والمنامات والإلهام والكشف وما جرى مجراها من الأدلّة لا يدلّ إلّا عند صاحبه على قول من يقول إنّها أدلّة أصلا فكيف بالمستدلّ بهداية التّوفيق؟!.

القياس:

من تكلّم في غير فنّه أتى بالعجائب ولا يقبل منه، فكيف بمن لا فنّ له أصلا؟!

توجيه الأثر:

والحقّ أنّه إذا لم يصحّ الأثر فلا حاجة به، وإن صحّ أمكن ردّه كما قلنا فليس كلام ابن عيينة ولا ابن المبارك بل ولا أحمد دليلا في نفسه بل هو يفتقر للدّليل، بل يكفي مخالفة جملة العلماء له مع غياب الدّليل عليه ووهاء نسبته إلى أحد هؤلاء لجعله مرجوحا غاية المرجوحيّة.

لكنّ الأدب مع أهل العلم يقتضي حمل كلامهم على أحسن المحامل، بفرض صحّة الأثر، أفيمكن فهمه على هذا المعنى الّذي فهموه؟

الجواب: نعم، لكنّه حينها لا يمكن إلّا ردّه لمصادمته لما قرّرناه فيما سبق بطوله.

فهل يمكن أن يحمل الكلام على معنى يلتئم به مع ما سبق بلا تنافر، وهو اللّائق بمثل ابن عيينة الإمام رحمة الله عليه؟

الجواب: نعم، لمن عقل ولم يعتقد ثمّ يستدلّ

فيمكن حمل كلامه رحمة الله عليه على كونه:

(1) أراد بأهل الثّغر أهلَ الذّكر في مســائل القتال فيكون موافقا للآية، وهذا متّفق عليه، لكنّه ليس مراد المســتدلّين فهو خارج عن محلّ النّزاع، لأنّ مرادهم: اســألوا أهل الثّغر حال الخلاف في المســائل العلميّة الشّرعيّة.

فأمّا سؤال أهل الثّغر في مسائل الجند وأساليب القتال التّكتيكيّة والخطط الحربيّة بل وحتّى الاستراتيجيّات المتّبعة إن كانوا من أهل النّظر فيها فلا خلاف فيه.

(2) أراد بالنّاس في قوله (إذا اختلف النّاس) = العلماء، وأراد بأهل الثّغر = علماءهم.

وهذا توجيه لطيف ملائم لكنّه مع ذلك يظلّ فقيرا لتوجيه آخر، فإنّ التّرجيح بين العلماء متّفق على أنّه يكون بالأعلميّة والورع، فيلزم أن يكون قصــده إذا اســتووا في العلم رجّحنا في الورع أهل الثّغور على غيرهم لأنّهم مظنّة الموت، والإنسان أقرب للتّقوى والصّدق مع الله عند اقترابه من الموت منه عند أمنه.

فأمّا إن لم يكن علماء الثّغر أعلم فالرّاجح الأعلم بلا إشــكال منهم أو من غيرهم، وأمّا إن لم يكونوا علماء أصلا فليس لهم من الأمر شيء.

وعلى أيّ حال حمل عليه هذا الأثر فهو مناقض لمطلوب المســتدلّين به الّذين فهموا أنّ الحقّ والصّــواب منوط بأهل الثّغور سواء في جملتهم بالعموم أو في علمائهم بالخصوص ممّا لم يقل به عالم.

تبرير الخطأ بالخطأ:

الطّيّار كان مجرما وجاء ليقصفهم فكيف تدافعون عنه؟

وهذا فيه إلزام عجيب بكون من أنكر حرقه معناه أنّه مدافع عنه، يشي بعجز فكريّ خالص لا أقلّ!

ثمّ هو مغالطة منطقيّة قديمة شهيرة هي تبرير الخطأ بالخطأ.

فالخطأ يبقى خطأ، والتّعدّي في مجازاة المجرم جريمة.

استعمال المعايير الرّياضيّة في الفقه:

وهذا مثله مثل قياس الماء بالمتر والهواء باللّتر والمسافة بالبار

وانظر المنشور السّابق:

عشوائيّات أكاديميّة:

لن يعجزك أن تستدلّ على حرمة شيء أعوزتك فيه الأدلّة بأن تتعلّق بسدّ الذّرائع، ولا على حلّه بأن تتعلّق بالمصلحة ... ولو كان العلم بالدّعاوى لكان الجهل نفسه علما بل خيرا من العلم.

وهذا التّوسّع غير المنضبط في هذين ملحق بما لا سواغ فيه من الخلاف، ومنتظم في نفس سلك الأصول الّتي لا يعتبر الخلاف فيها ولا يسوغ (في المدارس الفقهيّة الأربعة على أقلّ تقدير) ، مثلها مثل ردّ القياس الجليّ وإفراغ النّصّ من محتواه الشّرعيّ الّذي يدلّ عليه اللّسان بتشريحه هرمانيوطيقيّا وتسليط السّياقات التّاريخيّة وملابسات الواقع والتّاريخ عليه، وردّ خبر الآحاد إذا خالف القياس بالإطلاق، وصور الاستحسان الباطلة إجماعا، وردّ الآحاد الّذي يرويه غير فقيه مخالفا للأصول بالإطلاق، وردّ تخصيص السنّة لظاهر الكتاب، واعتبار الأصول المتناقضة كالتّوسّع في اعتبار المعنى والمقصد إذا كان يفضي للرّخصة والتّيسير والتّمسّك بالظّاهر إن كان العكس، والمبالغة في توسيع دائرة الضّروريّ والحاجيّ لإباحة المحظور القطعيّ من غير نظر لتحقّق أوصافها فعلا، والقضاء باعتبار العرف في نفسه دليلا على تحصيل الأحكام، والفتوى بالنّقل من الكتب من غير صناعة ونظر للتّنزيل الواقعيّ وتفاصيل الحوادث المستجدّة ...

وكلّ ذلك مردود باطل ...

ثمّ قد تكون الأصول الّتي بنيت عليها صحيحة يسوغ الخلاف فيها، ومع ذلك تردّ على قائلها من جهة أخرى، فإذا انتحل بعض الجهلة بضع أحرف من المسائل الّتي فيها خلا فقد يردّها عليه العلماء من جهة عدم أهليّته في نفسه، أو عدم بصره بالعلم وبما يقول، أو غلطه في استعمال البرهان والدّليل لا في نفس البرهان والدّليل، أو في توليد الحكم وطريق استخراجه لا في النّتيجة نفسها أو دليلها، أو لكون السّواغ

نفســه كان ثمّ ارتفع بانعقاد الإجماع مع ما يتناوش هذا من خلاف راجع للإجماع المعتبر نفســه، أو لكون موجب الخلاف نفسه مختلفا في المسألة الحادثة عن المسألة الّتي وقع فيها الخلاف عند السّلف، أو غير هذا ...

وهنا أيضا لتفهم الإشكال:

الفقه الرّياضيّ:

لا يوجد نموذج إلّا وله بعده المعرفيّ الّذي هو به أخصّ ومعايير داخليّة تشــمل معتقدات وفروضــا ومسلّمات هي خلفيّة عمليّات الإبقاء والاستبعاد والتّركيب والتّضخيم.

والفقه والعلم كلّه من ورائه = ملكة، ولو كان مجرّد إعمال قواعد بطريقة رياضــيّة لكان كلّ عاقل عالما بأيسر طريق.

وجوهر الفقه –والفتيا منه أخصّ– هو اعتبار القرائن المصاحب لكلّ حال والنّظر للغرض والمقصد عند الشّارع والمكلّف.

بل كلمة (فقه) نفسها تحمل معنى الاجتهاد والاحتمال والإبداع المعرفيّ، بضدّ كلمة (علم) الّتي استقرّوا على كونها تأكيدا للدّقّة واليقينيّة والحياد والقطع والنّهائيّة.

وكمثال من خارج الفقه يبيّن لك أنّ التّطبيق الصّارم لقواعد الرّياضيّات قد يفضي لاختيارات لا يقول بها عاقل، أضرب المثل التّالي:

لو خيّروك بين ساعتين:

السّاعة الأولى: متوقّفة.

السّاعة الثّانية: تؤخّر كلّ يوم ثانية واحدة.

فأيّهما أفضل وأيّهما تختار؟

طبعا معيار الاختيار والأفضليّة هو أحسنهما إشارة للوقت الصّحيح.

لا شكّ أنّ عامّة العقلاء سيختارون السّاعة الثّانية.

حسنا الرّياضيّات هنا تخبرك أنّ السّاعة الأولى هي الأفضل باعتبار إشارتها للوقت الصّحيح!

كيف؟

الجواب:

الأولى تشير للوقت الصّحيح مرّتين في اليوم.

*الثّانية تشير للوقت الصّحيح كلّ 43200 يوم أي كلّ 118 سنة تقريبا، لأنّه حاصل ضرب 60*60*12، فهي تشير للوقت الصّحيح بنسبة 0.00002 كلّ يوم.*

فلماذا نختار السّاعة الأولى رغم هذا؟

لأنّنا ندخل عوامل أخرى أغفلناها عند نظرنا الرّياضيّ المسطّح الآليّ الأوّل، مثل:

- السّاعة الأولى تشير للوقت الصّحيح مرّتين بكلّ تأكيد، لكنّنا لن نعرف متى فعلت، فضيّعنا المقصد من معرفة الوقت أصلا، في حين لو قبلنا هامش خطأ محدودا فيمكننا تحديد الوقت بحساب صحيح.

- السّاعة الأولى لو اعتبرنا هامش خطأ مقبولا بخمس دقائق فيمكننا استعمالها عشر دقائق في اليوم، وأمّا الثّانية فيمكننا أن نستعملها 300 يوم.

وهكذا الفقه، فاعرف الأشباه والنّظائر وقس، وُفّقتَ وهديتَ ووقيتَ!

تطبيق خطأ = نظريّة خطأ:

وهذه القاعدة الأصيلة في معدومي الفكر من الملحدين الّذين يقضون بالتّطبيق الخطأ للمسلمين على الإسلام نفسه، ويقرب منهم في ذلك العلمانيّون والقرآنيّون إذ يجعلون خطأ التّطبيق يلزم منه رمي المدوّنة الفقهيّة أو الحديثيّة في البحر لكونها سبب إشكالاتنا.

وكأنّ ردود الفقهاء والمتشرّعة على داعش يستقونها من فلاسفة الحداثة وما بعدها!

ومثل هذا من يطعن في شيخ الإسلام لكونهم استدلّوا بمقولة له ليس فيها شبه دلالة على مرامهم ومرادهم، وأنا في حيرة من فعل هؤلاء مع آيات الكتاب وأخبار السّــنّة الّتي يســتدلّ بها الدّواعش، أينهجون بها ذات النّهج أم يتناقضون ههنا؟!

ترك مضمون النّقد لكره الأسلوب:

وهو ترك مضمون النّقد وحججه الصّلبة لكراهة شدّة الأسلوب أو عرامة العبارة، وهذا ليس بشيء وهو أحد الحيل النّفسيّة للتّملّص، وانظر هنا:

النّصــيحة وأَخَصُّ منها النّقد الّذي هو تحديد الأخطاء مكروه طبعا عند عامّة بني الإنســان، ومع ذلك لا تكاد تجد من يقول صراحة ووجها (أنا لا أحبّ النّصح والنّصيحة والنّاصح)، وإنّما تجد أحد رجلين:

إمّا ملتمس لسبب خارج يمكن أن يخادع به نفسه وغيره كأن يلتفت إلى أسلوب النّصح فيزعم أنّه لم يكن لائقا (أصاب في ذلك أو أخطأ) صادفا عن حقيقة النّصيحة وما فيها ممّا لم يمكنه دفعه بالتّكذيب أو الحجّة

وإمّا ملتمس لأبعد من ذلك وأفحش وألأم حين يحاول إسقاط النّا صح نفسه بالا ستدلال على كونه ليس أهلا للنّصح، بعد أن أعجزه بعد التّفتيش التّعلّق بخلل في جوهر النّصيحة أو أسلوبها.

وكره النّقد ليس شرّا كلّه فإنّه لولاه لاستوى عند النّاس الإصـابة والخطأ، فإنّ كراهية النّقد تابعة لكراهية الخطأ، لكنّ تضخّم هذه الكراهية إلى حدّ نسيان لزوم الخطأ للبشريّ من حيث هو ابن آدم خطّاء تحمل على التّبرير فالإكثار منه فتسويغ الخطأ فإضفاء الشّرعيّة عليه، فيصير الخطأ الصّغير الأوّل بهذه اللّواحق مطمور أخطاء وأغاليط.

ثمّ إنّ فيه تســوية بين مختلفات فإنّه لا أحد يشــتدّ على الجاهل المقرّ بجهله، وإنّما الشّــدّة على المتعالم هي غاية الرّفق به والإحسان إليه، فإنّه متقوّل على الله وإلجامه حسنة له.

وأنا أفهم أنّك رؤوف وشـفيق محبّ للخير، لكنّك تخلط بين الجاهل البسـيط والجاهل المركّب، والمتعلّم والمتعالم في المعاملة، وهذا شرّ مستطير ...

ولا تكاد تجد أحدا فتح ورقة في كتب آداب طلب العلم إلّا وهو يميّز في المعاملة بينهما، بل ولا تكاد تجد أحدا من العقلاء إلّا وهو يميّز ...

فلن ترى قطّ من يغضب من سؤال رجل يسأل: أيّ الطّريقين لو سمحت يؤدّي للمكان الفلاني؟

لكن حين يأتيك رجل فيسألك:

هل حيوان البطّيخ هو السّبب في الاقتباس الحراري؟

ولا تغضب مهما كنت حليما، فاسمح لي ...

أنت فعلا بارد، وأنا في شكّ من عقلك مع عقله.

ربّ يسّر وأعن!